موتى الطابور..

دعاء إمام

هذه أنا..

إعصار الكلمات

طفلةٌ أنا بتقاسيم امرأة ناضجة الأحزان.. وعلى جناحي نورس مكلوم..أُحلق بين ربابات الحرمان..يؤلمني الزيف المنقوش على ألسنة الجبناء..ونفاق يزدان بنكهة إخلاص ووفاء.. فأعود عجوزًا تدفعها العِبرة.. فتبوح بوحي الكلمات وتُلملم فوضى العبرات..فالكلمة ميزان حياة..نار أو نور تلقاه..

والكلمة صرخة إعصار..تنسف بركان الأسرار..تغدو كميلادٍ للشمس..وتُعاني مَخاض الأنوار..لكن ما يُدهشني حقًّا..بسمة فجر ترسم شوقًا..فوق شفاه الحزن الأبكم..تسكب في أنفسنا رمقًا..لنقاوم معه كل رياح الغدر..ولتحيا أمانينا توقًا..ولتنبُت بين صحاري اليأس.. ريحانة حبٍّ نرويها عشقًا

دعاء إمام

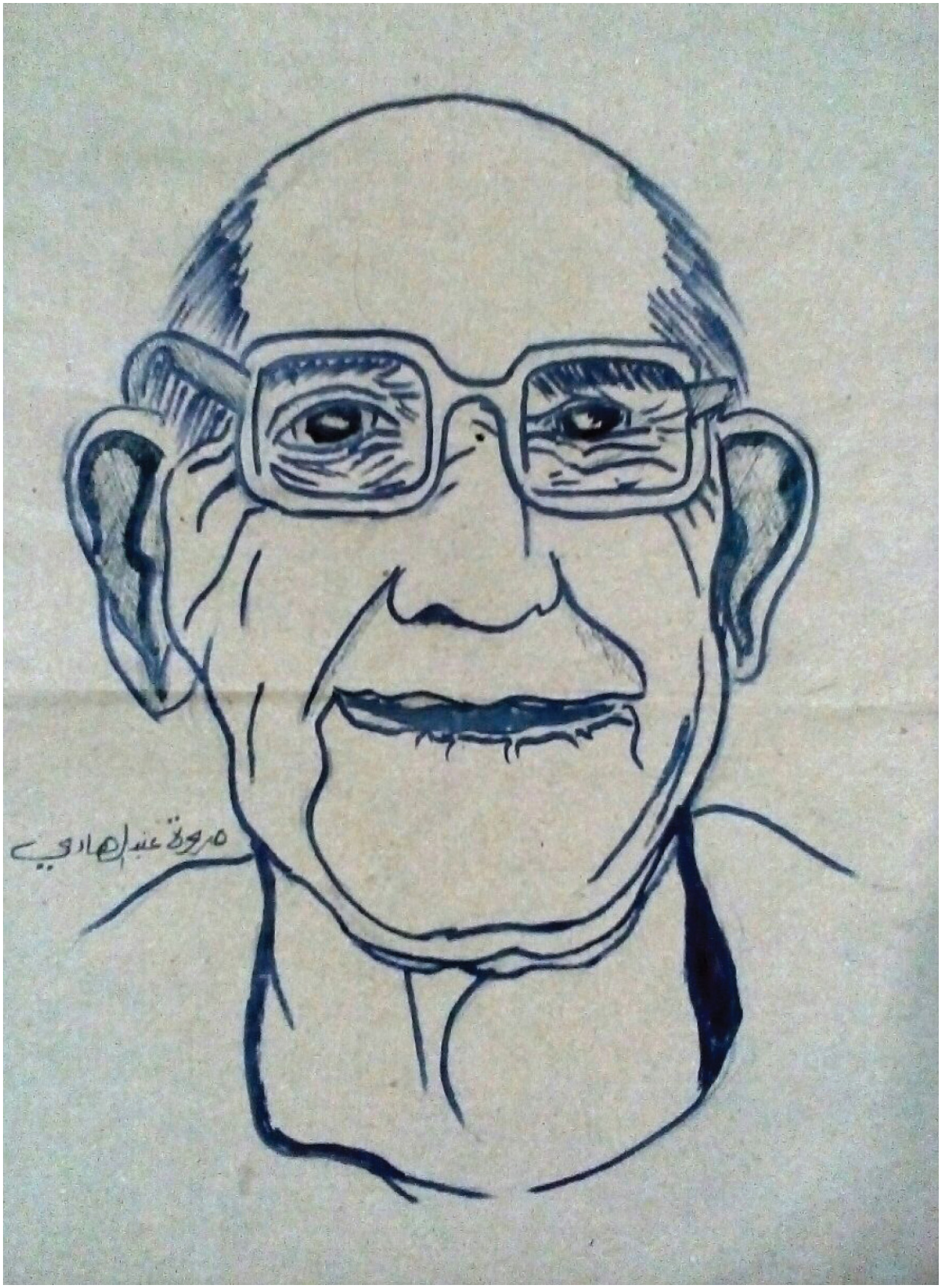
مروة عبد الهادي

موتى الطابور

"هيا يا بُني، لقد تأخرنا"

قالها أبي، وهو يرتدي حذاءه الأسود اللامع، كان قد تجاوز العقد السادس من عمره، ربما غاصت التجاعيد في وجهه المشرب بحمرة، لكن روحه لم تزل روح شاب في غضون الخامسة والعشرين؛ يوقظنا عندما ترسم عقارب الساعة خطًّا رأسيًّا مستقيمًا، ينتشي بإعداد الفطور والشاي، يستمع لنغمات الصباح عبرالمذياع، ويعانق النسمات في حبور عندما يفض مقابض تلك النوافذ القاتمة؛ فتضوي أشعة الشمس عتمة اليأس في النفوس؛ فتحيلها إلى بريق أمل يسري فينا.

"اليوم العاشر من أغسطس؛ صيف هذا العام قائظ جدًّا" قالها أبي، ونحن في طريقنا إلى مكتب البريد؛ ليتقاضى معاشه، أومأت برأسي مؤيدًا لكلماته؛ شغلني عنه العبث قليلًا بهاتفي النقال؛ أتبادل الرسائل على مواقع التواصل الاجتماعي.

الشارع أمامنا مكتظ بالناس، كلٌّ منهم شارد في عالمه، بعض المحال تفتح أبوابها، وبعضها الآخر مغلق؛ أعاقته نار الصيف،

وأودعته حبيس جدران بيته، لكنه سجن لذيذ؛ يتقلب في فراشه يشاهد التلفاز، وإن أرقته برودة المكيف عدَّل من درجتها.

وتسمَّرت أقدامنا أمام طابور طويل، تأملت الوجوه اللاهثة المُنصهرة من لهيب الصيف، وكأن العرق يُفتت شرايين الرؤوس، ويسيل كالماء من صنبور معطل، والجميع يصيح:"لقد اعتصرتنا الحرارة، وأحرقتنا الشمس"، والموظفون خلف الحاجز الزجاجي، يتذمرون ويسبون، كلٌّ على مكتبه المتواضع، لم ترحمه أشعة الشمس الحارقة من أن ترسل رسلها؛ لتقُض راحته، وتعيق حيويته، وتُكبل نشاطه؛ فلم يكن ذاك الحاجز حصينًا.

و أمام مكتب البريد صياح الباعة الجائلين يقاطعه حشرجات صوتهم المبحوح الذي أنهكه جفاف حلوقهم، وجباههم الصابرة حد الانفجار تتصبب عرقًا، بل يموج صراخهم مع نعيق مكابح السيارات، وآلات التنبيه، وصياح عامل القهوة المجاورة، وأصوات شتى عجَّ بها الطريق

لكن شيئًا ما جذب انتباهي في ذاك الطابور؛ وكأنه عالم آخر فوق عالمنا؛ فبين صفوفه ترى الشاب يلاصق الكهل، يدانيهم شيخ يترقب دوره بضجر يكاد يشابه في تفاصيله ذلك الضجر

الذي يعترينا عند المكوث على الرصيف؛ لترقب الحافلة بعد يوم عمل شاق في هجير الصيف.

لقمة العيش هي ذلك العامل المشترك البائس بين الجميع، المعاناة، وحدها هي من ترسم تلك التجاعيد على الوجوه.

صاحبنا الملل طيلة الساعتين اللتين مرتا كمرور السلحفاة، ملل خفَّف وطأته تلك الأقصوصات التي كان يسردها عم حسن:الرفيق الذي تستطيع أن تقاوم معه ذلك الفيروس المقيت -الملل- أمام طابور طويل، ورغم أن عهدي برفقته اليوم فحسب، إلا أن الشعور المُخيم على أحاسيسي هو أنني أعرفه منذ زمنٍ بعيد.

لم أنسَ تلك النشوة التي رأيتها في عينيه، عندما حدَّثني عن أبنائه، فقال: "سامي أكبر أولادي، لكم أفتقده!"، ثم شرد لحظة، وتابع:" أذكر جيدًا يوم تفوقه في كلية التجارة، وبعدها كم ذاق الأمرَّين في التنقيب عن عمل يتناسب ومتطلبات العيش، ويوم وجده كانت فرحته به تعادل فرحتي بمولوده الأول سيف، وبين الفرحتين أيام وسنون، ضجَّت كما ضجَّ من بحثه عن شقة صغيرة، وشريكة عمر ترضى أن تُقاسمه أتراحه وأفراحه، بل

تتحمل عبء العمل والبيت، والأطفال معًا "وتنهد بعمق، ثم قال:"أنا لا ألومه عندما يطول غيابه عني بالأسابيع؛ أعلم أن ما يحمله على كاهله يكفي أن يفتت أركان طود عظيم؛ يعمل في دوامين صباحًا ومساءً، ويعود بين العملين ليتناول وجبة الغداء، ثم يستأنف رحلة الشقاء من أجل الحياة.

فقط كنت أريد أن أسمع همسات منه بين الفينة والأخرى، لما لا يرفع سماعة الهاتف؟ "توقف عم حسن للحظات، ثم حملق فيَّ.متسائلًا: "تُرى، هل نسى أن له أب؟!"، كادت عبراته أن تهزمه، بيد أن صراخًا صادرًا من طابور السيدات قد أثار حفيظتنا؛ فتابعنا ما يدور عن كثب.

امرأة أربعينية تجذب أخرى تضاهي عمرها، وتصرخ:"هذا دوري، كيف تأخذين دوري؟"، ثم أشارت بسبابتها تجاه امرأة ثالثة؛ لتبادر تلك المرأة المشار إليها بالحديث:"نعم، دورها، وأنا من تليها "، فتجيبها التي جُذِبت:

" لا هذا دوري، أنا كنت هنا قبلكِ في الطابور، فقط ذهبت لأحضر ابني من المدرسة".

فتقاطعهن رابعة تدافع عن المرأة التي جُذبت من ردائها قائلة:

"هي كانت ورائي في آخر الطابور"، ثم تشير إلى السيدتين الأخرتين:"وأنتما أتيتما بعدها"، وما هي إلا لحظات، ويتشابكن جميعًا بالألفاظ تارة وبالأيدي تارة أخرى، ثم لا يحسم الخلاف بينهن سوى شهادة أحد الرجال، أو بعض النسوة لصالح إحداهن.

ويعود الطابور إلى هدوئه الصاخب، صاخب فقط بتمتمات هؤلاء النسوة، وهن يتحدثن عن أسعار بعض السلع، وغلاء المعيشة، وقلة ذات اليد، منهن من تبحث عن عروس لابنها، وأخرى تسأل عن علاج من وصفات الأعشاب لبعض الأمراض بعد أن تقرحت معدتها من تناول الأدوية بكثرة، وغيرهن يتحدثن عن دراسة أولادهن، وصعوبات متنوعة في المناهج، فضلًا عن كابوس الدروس الخصوصية.

تتدفق الأحاديث كشلال يأبى السكون وتتابين الاهتمامات كألوان قوس قزح، ثم يعود العم حسن لسرد حكاياته، بعد استئذاني منه لدقائق؛ أتابع فيها دور أبي الذي لاذ هو الآخر بالفرار من الملل بالحديث مع أحد أصدقائه القدامى، باسترجاع ذكريات دامت محفورة في ذاكرته، والتي كانت كفيلة بأن تُعيد إليه بسمته المسلوبة بعد الوصول إلى سن التقاعد.

أنصتُّ للعم حسن، فافتر ثغره باسمًا، وهو يردف حديثه عن بقية أولاده قائلًا: "علي الابن الأوسط، درة أبنائي، اختار طريقه منذ البداية بعد أن تخرَّج في كلية الهندسة بتفوق، وفاز بإحدى الفرص في بعثة علمية مُتجهة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، توالت الأعوام، وانقضت فترة البعثة، لكن أحلامه لم تنقضِ، تابع العمل هناك بعد أن أغرته كل الفرص المُقدمة على طبق من ذهب -تبسَّم ساخرًا -بل ملعقة من ذهب أيضًا، حاولت أن أثنيه كثيرًا، لكن طموحه كان كمحيط واسع لا تستطيع تحديد عمقه.

هكذا طاب له العيش هناك؛ فتزوج بأجنبية، أما الآن فيبحث عن عمل لأخيه في أمريكا، أو حتى في بلد عربي عن طريق أصدقائه، وعلاقاته، ففكرة السفر للخارج توقدها نيران رغبة سامي؛ في توفير سكن ثابت، ودخل جيد، ومستوى معيشة لائق لعائلته الصغيرة.

أصبح كلاهما على شاطىء، وأنا على شاطئ آخر، جاهدت كي أعيدهما إلى أحضاني لكن الإخفاق كان حليفي اللدود؛ فأكتفي بسماع صوتهما عبر الهاتف، وأستسلم صارخًا في أعماقي لتخيُّل رحيلهما- بالرغم من أن سامي مازال بجانبي ولم يرحل بعد- فلا أجادل فليس في العمر بقية للخصام؛ أريد أن أُشبع روحي المتضورة شوقًا إليهم؛ جُل همي في دنياي بعد رضا الله،

هو أن يكونوا سعداء "قاطع حكايا عم حسن صراخ آخر صادر من طابور السيدات، لكن الأمر هذه المرة يختلف تمامًا.

" ألم يجد أحد منكن حافظة نقودي، ابحثن معي أرجوكن " قالتها سيدة تجاوزت أعتاب الستين من عمرها، صارخة باكية، والجميع يحاول أن يُهدئ من روعها، غير أنها ما زالت تبكي، وزاد من نحيبها؛ أنها لم تعثر على حافظتها، ولم يجدها أحد ممن تطوعوا بحثًا عنها؛ فأيقنت أنها سُرقت.

يبدو أنه لص ماهر ماكر لم تشعر به، أو أن أحدًا ما وجدها مُلقاة على الأرض؛ فاستحل أخذها، ثم غادر المكان، وربما هو بيننا الآن؛ فالاحتمالات كُثر؛ لكن لاسبيل لها إلا الإذعان للأمر الواقع، والرضا، والصبر، والاحتساب، وبهذا كله هدأها الجميع، ومنهم من حاول إقراضها؛ لكنها أبت، فكفكفت دموعها، ولملمت أحزانها، محتسبة الأجر عند الله، ثم تركت المكان.

عاد كلٌ منا إلى أدراجه، حيث موضعه المعتاد من الطابور؛ ورجعت إلى عم حسن، فقلت له: "هيا أكمل يا عمي، ماذا عن آخر أبنائك؟"؛ فأدار لي صندوق حكاياه؛ ليُريني بعضًا من حياة ابنه الأصغر خالد، قائلًا في حنين:" الصغير فوضوي بعض الشيء،

اسمه كاسمك يا خالد، فتبسَّمت، ثم أردف:" لا يستطيع الاعتماد على نفسه، يستيقظ متأخرًا، وبالكاد يحضر الإفطار، خيالي بعض الشيء، يستمتع بوقته مع أصدقائه؛ لاهثًا وراء نزوات الشباب.

تخرَّج في كلية الحقوق بعد رسوب مرات عدة، قلت له:"لِمَا لم تُكمل في كلية التجارة؟"، فأجابني بنبرة يُغلِّفها اللامبالاة، واليأس، والاستسلام: "جميعهم سواء، المهم أين العمل؟"،

فأجبته: "يا بُني، اعمل الآن في أي مجال متاح لديك ريثما يأتيك ما ترنو إليه؛ فمع مرور الوقت تزداد خبرتك وتتنوع معارفك، وتتسع دائرة أحلامك".

لكنه عنيد، ما يحلم به فقط مشروع تجاري مربح، دون العناء حتى في إيجاد رأس مال"، وغمغم في سخرية: "فسيقترضهم من بنك أخيه علي هو ينتظر فقط تخمُّر الفكرة العظيمة للمشروع الهلامي في أفق خياله.

ومع أنه يقطن معي، إلا أنني لا أراه إلا عصرًا حينما يصحو، وعندما يعود ليلًا أكون قد استسلمت لداعي النوم"... هكذا تابع عم حسن أحاديثه عن أبنائه لذلك لم تتنوع مائدة حوارنا كثيرًا فكانت بوصلته تتجه غالبًا حول قساوة المعيشة، وجفاء الأبناء.

بعد قليل توقف عم حسن عن الثرثرة، وشرع يلتقط أنفاسه، ويرتشف الماء؛ ليرطب جفاف حلقه، ويروي ظمأه بعد كل هذه الأحاديث المضنية، أما أنا فاستأذنته قليلًا؛ لأطمئن على أبي - ربَّما خشيت أن أكون كخالد، أو سامي، أو حتى علي -وأخبرته بأن يستريح، ولا يقلق؛ فدوره خلفنا؛ سأناديه حين يحين.

لكن سرعان ما استوقفني صرير جلبة وضوضاء، والغريب أنه آتٍ من طابور الرجال، فأيقظ شرودي صياح أحدهم قائلًا: "أغيثونا، هناك رجل يكاد يفقد وعيه". وثبت من توي؛ أفسح الزحام حول ذاك الرجل، وحينما وصلت إليه آلمني كونه شابًا ولم يصمد، فلمَّا تفحصته جيدًا؛ عرفت السبب؛ ثم أسقيته من علبة عصير كانت معي، قال لي أحدهم:"إنه يعاني من انخفاض السكر في الدم"، فأومأت إليه مؤيدًا، ثم قلت:" نعم؛ التعرق الشديد، الشحوب، رطوبة الجلد واللسان؛ كلها علامة على ذلك، لا بأس دقائق وسيغدو أفضل إن شاء الله".مرَّ بعض الوقت حتى استعاد الشاب وعيه، وأقام صلبه، ثم عاود الوقوف في الطابور.

انقضت بضع دقائق أخرى صاحبت فيها أبي إلى أن أتى دوره؛ فتركته يتسلَّم راتبه، ورحت أنادي عم حسن؛ فدوره قد حان، لكنه لم يُجب، ربتُّ على كتفه، أمسكت بيديه، وما إن

لمستها حتى تدفقت برودتها؛ لتخترق جسدي وتسري في شراييني لتنذرني الخوف والحسرة.

لم أستطع أن أوقف ذلك الصقيع الذائب في روحي، حتى بعدما تركت يده؛ فصرخت:"عم حسن مات"، تلقفتني الأنظار في فزع؛ تأملوه، وتثبت يقينهم من منيته، ضربوا كفًّا بكف، بعضهم حوقل، وبعضهم لهج بالشهادتين، ثم كوموه مزويًّا في أحد الأركان، ودثروه بأوراق الجرائد؛ كأنه قط ميت، وتابعوا الطابور

و أهو ده اللي صار!